# بريد الجمعة

إثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ■ ١٩ يوليو ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

# ملابس الحداد

هذه هي الرسالة العاشرة التي أكتبها إليك ولم [illegible] طريقها إليك هذه المرة لأني في أشد الحاجة إلى مساعدتك لي على حل مشكلتي. فأنا سيدة شابة عمري ٢٦ عاما تزوجت منذ عامين ولدي طفل عمره عام ونصف العام. وقد شهدت حياتي مع زوجي بعض الخلافات المعتادة في السنوات الأولى من الزواج لكنني أحبه وهو يحبني وأريد أن ينشأ ابننا الوحيد بيننا. وعلى أثر خلاف بيني وبينه بعد شهور من الزواج لجأت إلى بيت أهلي، [illegible] باب شقتنا. واتصل بي [illegible] أبي حواري وحيرتي بين الحياة معه وبين أمي واشترط علي إذا رجعنا إلى مسكننا ألا تدخل أمي شقتنا ذات يوم تجنبا للمشكلات والخلافات. وانتهت المكالمة بيننا دون اتفاق على شيء. ثم سعى الأهل للإصلاح بيننا [illegible] زوجي [illegible] بشرطه ألا تدخل أمي [illegible] لتجدد المشاكل مرة أخرى. وجاء إلى [illegible] دون أن أتكلم أو [illegible] في شيء. [illegible] عودتي إلى مسكننا وجهت أبا لوما [illegible] على ما فعل وما قال وسافرنا في اليوم التالي إلى [illegible] حيث يعمل [illegible] ضربا مبرحا وأصابني بنزف في أذني. وانصرفت [illegible] لكي يأخذني [illegible] وهو في حالة غضب شديدة، لكي تدارك الأمر ورأيت ألا أرجع معه حفاظا على حياتي الزوجية والأسرية ورجع أبي إلى مسكنه.

وبعد شهر رجعت في زيارة إلى أهلي فما أن رأتني أمي حتى انفجرت في وجهي وطردتني من البيت واتهمتني بأنني قد طعنتها في كرامتها وأهنتها حين رجعت إلى زوجي دون أن أرد لها كرامتها. وتحملت ثورتها صابرة وتركت البيت إلى شقة الزوجية ورجعت إليها في اليوم التالي لكي أسترضيها وأطلب منها أن تسامحني فلم تطردني هذه المرة. وأقمت معها أسبوعا.

وخلال هذه الفترة وجدت كل من حولي يلومونني لأني لم أرجع مع أبي بعد أن استنجدت به وضربني زوجي، مع أني كنت قد فضلت عدم الرجوع معه لكيلا تتعقد المشكلة أكثر ونصل إلى الطلاق الذي لا أريده ولا أفكر فيه.

وجاء اليوم المحدد لعودتي لزوجي فاكتشف أبي وأمي إصابتي في أذني التي كنت قد أخفيتها عنهما. وأصر أبي على عدم سفري إلا بعد علاج أذني واتصل بزوجي يبلغه بذلك فأجابه بما يفيد أنه من الأفضل أن أبقى إلى [illegible] العودة إليه الآن.. وشعرت بالإهانة من جديد لهذه الإجابة الجارحة وثارت أمي عليه من جديد وكذلك أبي. ووجدت أمي تخيرني بينها وبينه ووجدتني أقتنع بما تقول وأذهب معها للمحامي للبدء في إجراءات الطلاق، لكني ما أن دخلت مكتبه وبدأ الحديث عن الإجراءات حتى وجدتني أنهار باكية وأرفض الاستمرار وأنصرف دون أن أفعل شيئا. ومضت بضعة أيام ثم استجمعت إرادتي مرة أخرى بعد أن لمست لدى أمي رغبة قوية في طلاقي من زوجي لكي أرد لها كرامتها.. وقررت العودة للمحامي لاتخاذ الإجراءات.. وصرحت لأمي بذلك لكن أبي لاحظ علي أنني دائمة البكاء، وعازفة عن الطعام والكلام ووجهي يزداد ذبولا وشحوبا فأدرك أنني لا أريد الطلاق.. وأنني لا أفكر فيه إلا مضطرة، فأعفاني من الاستمرار في الإجراءات. وفي هذه الأثناء جاء زوجي لإنهاء الموضوع إما بالصلح أو بالطلاق الودي إذا أصر [illegible] أبي وأمي. ولم تكن أمي راغبة في [illegible] بيننا من الأصل لكيلا أضعف أمامه وأرغب في العودة إليه، وردا على رغبته بعدم السماح لها بدخول شقتنا. لكن أبي تجاوز عن ذلك وسمح له بالمجيء. وجاء بالفعل مع شقيقه وطرحت المشكلة للنقاش وأبدى كل طرف وجهة نظره وأكد زوجي رغبته في استعادتي والتزمت الصمت لكيلا تتهمني أمي بالتلهف على العودة إليه قبل رد كرامتها وانتهت الجلسة بأن طلبت مني أمي أن أرجع مع زوجي. وبالرغم من نطقها بذلك فلقد كنت على يقين من أنها تقوله فقط لكي تخلي مسئوليتها عن طلاقي وأنها تنتظر أن يأتي الرفض من جانبي. فلا يقول أحد بعد ذلك إنها قد خربت حياتي لعدم رضائها عن زوجي فلقد كانت تسعد كثيرا حين كانت تنتابني نوبة من الرفض لزوجي والتفكير في الانفصال عنه وتحزن كثيرا حين تجدني أريده وأرغب في العودة إليه. لكني على أي حال اعتمدت على تصريحها لي بالعودة لزوجي ورجعت معه.

ومنذ ذلك الحين وأنا وزوجي نحمد الله على عودة الحياة بيننا لأن كلا منا مازال يحب الآخر ويرغب فيه لكن المشكلة هي أنني بعودتي إلى زوجي قد أصبحت محرومة نهائيا من أمي التي تعتبر عودتي إليه طعنة دامية لها في قلبها ولا تريد أن تنسى لزوجي طعنته الغادرة لكرامتها. وترفضه نهائيا ولا تريدني زوجة لزوجي بل مطلقة منه. وتغلق في وجهي سماعة الهاتف قبل أن أتكلم ولا تريد أن تتكلم معي أو تسمعني أو أزورها أو أراها أو تسمع أي شيء عني. كما أنها ومنذ عودتي لزوجي ترتدي ملابس الحداد السوداء علي وتقول لكل من يسألها عني إن ابنتها قد ماتت وتدعو الله علي ليل نهار وترفض تناول أدويتها لعلاج ضغط الدم المرتفع والسكر لكي أكون السبب في أي شيء يحدث لها. فماذا أفعل يا سيدي؟

إنني أعرف جيدا أن أمي تأمل في أعماقها أن يجيء اليوم الذي أطلق فيه من زوجي.. وأنا على الناحية الأخرى أريد أن ينشأ طفلنا بين أبيه وأمه [illegible] معه. وهو يحبني ويتمسك بي.. لكنني أفكر أحيانا في أن أضحي به من أجل أمي لكي أعوضها عما شعرت به من ألم. وأكره كثيرا أن أحمل لقب مطلقة.. وأكره أكثر أن تظل أمي غاضبة علي وتحرمني من حنانها وعطفها بعد أن كنا بمثابة شقيقتين إحداهما تكبر الأخرى ولسنا أما وابنتها، وبعد أن كانت تحبني إلى درجة الجنون وتخاف علي وتؤثرني على نفسها وتفضلني على أخوتي الذكور لأنني ابنتها الوحيدة. أصبحت تكرهني وترفضني وتغلق كل الأبواب في وجهي إنني أريدك أن تكتب لها إنني لست ابنة جاحدة كما تتصورني أو كما يقول لها البعض عني وإنني أحبها ولم يكن رجوعي لزوجي إلا لكي نعطي أنفسنا فرصة ثانية لأن نكون أسرة سعيدة، وبوجودها في حياتنا وليس بدونها كما إنني كنت في حالة اضطراب وعدم اتزان فهل تغفر لي ذلك. وهل تناشدها أن تفعل؟

## ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

التضحية المقبولة هي أن يضحي المرء ببعض ما يملك إعلاء لهدف يراه جديرا بالتنازل عن شيء من اعتباراته من أجله. أما أن يضحي المرء بما يشاركه الآخرون في ملكيته تحقيقا لهدف ذاتي له وحده فليس من قبيل التضحية وإنما من قبيل العدوان على حقوق الآخرين والإضرار بهم ومن ذلك أن تضحي زوجة شابة مثلك بحق طفلها الصغير في الحياة العائلية المستقرة وفي أن ينشأ بين أبوين يرعيانه ويحدبان عليه، استرضاء لوالدتها أو انتصارا لكرامتها الجريحة مهما يكن الرأي في زوج الابنة وأيا كانت جريمته في حق والدة زوجته. لأنها بذلك لا تضحي بسعادتها مع زوجها أو حبها له فقط وإنما تضحي أيضا بما لا تملك حق التفريط فيه أو المساومة عليه وهو أمان طفلها وحقه في النشأة الطبيعية بين أبويه. ولو كان الأمر يقتصر على عاطفتك وحدك تجاه زوجك أو عاطفة زوجك تجاهك لربما وافقتك على التضحية به إلى أن يصلح ما أفسده من علاقته بوالدتك وأهلك لكن الأمر لا يقتصر عليك وحدك وبالتالي فليس هناك أي مجال لمناقشة خيار الانفصال والتضحية بالزوج لاستعادة رضا الأم المفقود، وإنما ينبغي أن يتركز الحديث كله حول سبل إصلاح ما أفسده الاندفاع والتهور في العلاقات العائلية وسبل استعادة صلة الرحم بينك وبين والدتك التي تشعر بالإهانة وجرح الكرامة من جانبك وجانب زوجك.. وفي ذلك فإن زوجك يتحمل مسئولية جسيمة عن رأب هذا الصدع في علاقتك بوالدتك لأنه قد أسهم بقسط كبير في شرخ علاقتك بها بتصرفه العدائي تجاهها عند تغيير كالون الشقة، وبتخييره لك بينه وبينها.. ورغبته في إخراجها من حياتك مهما تكن أسبابه ومبرراته لذلك، لأن من يحب أحدا بصدق يرغب في إسعاده وتأليف القلوب حوله.. وإعانته على الحفاظ على صلاته الحميمية بأقرب الناس إليه.. وليس في أن يقطعه عمن يرتبط بهم بوشائج الدم ولا تهنأ له الحياة إذا حرم منهم أو تقطعت السبل بينه وبينهم. فسعادة الإنسان لا تكتمل ولو كان يسبح في بحار النعيم العاطفي وهو مقطوع الصلة بذوي رحمه وأقرب الناس إليه.. أو وهو متهم منهم بالجحود والعقوق.. والخيانة ونكران الجميل؟ فماذا فعل زوجك إذن لكي يصلح ما انقطع بينك وبين والدتك التي بلغ بها الألم والمرارة تجاهك أن ارتدت عليك ملابس الحداد واعتبرتك على غير قيد الحياة؟

وكيف يرضى لك بهذا الألم المرير وهذا الحرمان القاسي من عاطفة الأم ودورها في حياتك؟ إنه مطالب بألا يكتفي بموقف المحايد في علاقتك بها لأن له دورا فاعلا في انقطاع رحمك معها. والشرفاء يتحملون مسئوليات أفعالهم ولا يتهربون منها ولا يتعللون بالحياد الكاذب تجاه نتائجها.. ولهذا فلابد أن يعينك على استرضاء والدتك واستعادة مودتها وفتح أبوابها الموصدة في وجهك ولو تطلب الأمر أن يتنازل عن كبريائه معها ويسترضيها ويعتذر لها مرارا وتكرارا ويصبر على جفائها معه ولومها له إلى أن يلين قلبها لك فهذا هو واجبه نحوك ونحو طفله منك. الذي يحرمه بهذه القطيعة من الاستمتاع بعطف جدته وحنبها عليه. وليس في رجوعه عما كان قد قرره من إخراج أمك من حياتكم ما يعيبه حتى لو كان قد تهور وأقسم ألا يصلها أو يتقبل دورها الطبيعي كأم لزوجته في حياته. فلقد روي في بعض أسباب التنزيل أن عبد الله بن رواحة كان قد حلف ألا يكلم ختنه «زوج شقيقته» وألا يصلح بينه وبين أخته فنزلت الآية الكريمة: «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم»

وجاء في الحديث الشريف: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل..

وقال الصحابي الجليل ابن عباس في تفسير تلك الآية: لا تجعلن الله عرضة ليمينك ألا تصنع الخير.. ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير.

وكفارة اليمين معروفة وهي إطعام عشرة مساكين أو مسكين عشرة أيام من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو عتق رقبة، فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام وهكذا وسعت رحمة السماء كل شيء.. فلماذا نضيق على أنفسنا.. ونتعلل بما لا ينبغي التعلل به للاستمرار في الخطأ والقطيعة.. ؟

يا سيدتي إن حل مشكلتك في يد زوجك أولا وقبل كل شيء.. لأن استرضاء والدتك والاعتذار إليها ليس بالأمر المستحيل، لكنه بقدر العتب يكون العتاب وبقدر الجرم كذلك يكون التكفير والاعتذار، ووالدتك مهما بلغت بها المرارة وبالغت في ذلك بارتداء ملابس الحداد عليك فإن في صدرها في النهاية قلب أم، يتلهف في أعماقه على احتضان ابنتها التي تشعر تجاهها بكل هذا الغضب وتتمنى لو تنجح هذه الابنة في إزالة ما علق بصدرها من شوائب تجاهها وأن تشعر بحبها لها ورغبتها الحقيقية في استعادة مودتها.. ولن يتحقق ذلك إلا إذا ضغطت على زوجك لكي يتنازل عن بعض جموده ويدرك أنه لن تستقر بك سفينة الحياة أبدا إلا إذا نجح في وصل ما انقطع بينك وبين والدتك ويؤمن بأنه ليس بالكبرياء الأجوف يسعد الإنسان شركاء الحياة.. وإنما بالفهم.. والإدراك والحب والاحترام.. وفتح القنوات المسدودة بينهم وبين ذوي رحمهم وأقرب البشر إليهم.. فالكلمات الطيبة من جانبك لن تنجح وحدها في إذابة الجليد الذي تراكم بينك وبين والدتك ما لم يصدقها العمل وصدق الاسترضاء.. وإقناع الزوج بمشاركتك في كل ذلك بالأفعال وليس بالأقوال إلى أن تصفح وتنسى وتتجاوز المرارات والأكدار.

وقديما قال جمال الدين الأفغاني: ألف قول لا تعدل في الميزان عملا واحدا!